حملة بونابرت
من منظور مصرى

قراءة نقدية بقلم: أ. د. صادق نعيمى

خصص المركز الفرنسى للدراسة والتوثيق الاقتصادى والقضائى والاجتماعى المعروف اختصاراً بـ (السديج Cedej)، عدد دوريته: "مصر – العالم العربى" عن كيفية المعالجة المصرية لحملة بونابرت على مصر، وقد صدر هذا العدد بمناسبة المئوية الثانية لهذه الحملة، ضمن مشروع احتفالى فرنسى – مصرى بهذه المناسبة، سرعان ما تحول من احتفالية إلى عمل بعنوان: "آفاق مشتركة" بين مصر وفرنسا. ويرجع هذا التغيير فى اسم المشروع وتغيير البرنامج إلى الضجة التى أثارها الإعلام المصرى بسبب سعى البعض للاحتفال بعملية عسكرية سعت إلى احتلال مصر.

ورغم أن هذه الضجة قد أثيرت حول حدث تاريخى، فإن المؤرخين كانوا شبه غائبين أو إن شئت مغيبين عن الإدلاء بآرائهم العملية حول هذا الحدث، وهذا ما نقرأه فى الفصل الثانى من "المنبر" الذى يمثل المحور الأول لهذا العدد. وقد أوردنا هذا الفصل مترجما كاملا فى هذا الكتاب تحت عنوان: "محصلة متعارضة"، ورغم اختلاف وجهات نظر المؤرخين المشاركين فى المائدة المستديرة التى شكلت مضمون هذا الفصل، فقد أجمعوا على أن الحملة قد مثلت – بحق – صدمة للمجتمع المصرى، وأحدثت حراكا ما فى هذا المجتمع. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن

الحملة جاءت للقضاء على نهضة مصرية بدأت فى الظهور فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، نهضة لا يوافق على وجودها الكثير من المؤرخين.

ويشمل هذا العدد عدة مقالات عميقة، ومقابلة مع بيتر جران، وأولى هذه المقالات، عمل ليلى عنان المتخصصة فى تاريخ الحضارة الفرنسية، وتتميز مراجعها بأنها متعلقة مباشرة بالموضوع، وهى أستاذة على صلة مباشرة بالمصادر الفرنسية. وقد اختارت عنواناً ساخراً ومتسائلاً: "إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة، أو كنت تدرى فالمصيبة أعظم"!

ويمثل المقال نوعاً من تمرد المثقفة الناضجة والأكاديمية المتخصصة على ما تلقته فى مراحل تعليمها الإعدادى والثانوى عن الحملة فى مدارس اللغات الفرنسية، وعملها ليس تاريخيا بقدر ما هو قراءة فى أدب الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر بداية من عمل "فيفان دينون" المعنون: رحلة إلى مصر السفلى والصعيد"، مروراً بمذكرات كلوت بك والرحلة الشهيرة للأديب جيرار دى نيرفال المعنونة "رحلة إلى الشرق". وتعطى هذه القراءة إجابة محددة عن الحملة الفرنسية بقدر ما يخرج المتصفح لهذه السطور بأن ظلالاً من القلق مازالت تخيم على نفس كاتبتها، بمعنى آخر أن تأثير اللحظة الأولى لم ينته بعد، فالمعلومات التى تلقتها فى مدارس اللغات الفرنسية سنة 1948 عن الحملة التى أريد لها أن تكون بداية "مرحلة تنويرية" فى تاريخ مصر، ما انفكت تحدث أثراً فى عقلية هذه الأستاذة، رغم إرادة تحررها من تدريس "التاريخ الموجه"، إلى مرحلة رؤية الحدث التاريخى بعقلية ذاتية (متشككة) بعيدة عن الظلال القومية التى يحاول تيار تعليمى ما أن يزرعه فى نفوس التلاميذ والطلاب.

وليلى عنان بمثابة صوت مصر يرد على آراء متعددة فى الجانب الفرنسى تحاول أن تجعل من الحملة أسطورة نابليونية، وجنة مفقودة، ولكن مقالها يبقى فى مرحلة التساؤلات، وهو ما يتسق مع العنوان الذى اختارته، ولعل أوضح ما فى هذه التساؤلات أن بداية الخروج من مرحلة الشك إلى يقين بأن هذه الحملة هى عمل عسكرى يجب عدم الاحتفال به وإن كانت تستحق دراستها.

ويأتى مقال عفاف لطفى السيد محاولاً الإجابة عن النقطة المحورية المتمثلة فيما إذا كانت الحملة بداية مرحلة التحديث فى مصر، ويتعرض مقالها: "الحملة الفرنسية والجدل حول الحداثة"، لمناقشة نظريتين ترى الأولى أن الحداثة يجب أن تأتى من الخارج، بينما الثانية تؤكد بأن لا حداثة ولا تحديث ما لم تكن هناك ظروف داخلية مواتية.

وقد ناقشت أستاذة التاريخ الحديث بجامعة كاليفورنيا، مقولات عن تأخر مصر التكنولوجى فى أواخر القرن الثامن عشر مقارنة بما كانت عليه حال أوربا، وهى وإن كانت قد وافقت على صحة هذا الأمر؛ لدرجة أن كثيراً من العلماء قد أعجبوا بالمكتبة التى جاء بها الفرنسيون، وبما كان عليه جيشهم من تقدم تقنى مقارنة مع حال جيش المماليك، إلا أن ثمة عوامل قد حالت دون حدوث التفاعل. وترصد عفاف لطفى السيد جانباً نفسياً لدى الجانبين حال دون قيام المودة بينهما، وهو مستوى النظافة " فقذارة الجنود وميلهم الواضح للسكر والكحوليات من الأمور التى استهجنها المصريون". وكان الجيش الفرنسى ينظر إلى المصريين نفس "النظرة النفسية الدونية"، هذا بالإضافة إلى ما قام به هذا الجيش من اقتحام للجامع الأزهر ونهب بعض القرى.

ولعل مارصدته هذه المؤرخة من قيام "حاجز نفسى" بين الاثنين، أفضل ما فى مقالها، بالإضافة إلى ما رصدته من بداية انتعاش حركة التجارة فى مصر بعد طول فترة ركود لدرجة أن كبار التجار والعلماء بدأوا يستثمرون فى الالتزام. وإذا كانت تعترف – وهو أمر أوافقها تماما عليه- بأن تفاوتا تقنيا كان واضحا لصالح الفرنسيين، وأنها لم تشر إلى نهضة فكرية وعلمية بازغة فى نهاية القرن الثامن عشر كما يرى البعض، إلا أنها أشارت إلى أهمية إعادة قراءة المنتج الفكرى للعلماء فى هذه الفترة حتى يمكن الحكم على المقولة السائدة بأن التعليم فى هذه المرحلة كان محدوداً فى بعض المعارف والعلوم الشرعية، ولكنها فى ذلك تبدو متأثرة برأى بيتر جران الذى سوف نناقشه لاحقا فى هذه القراءة.

ونراها تعود إلى "الحاجز النفسى" مرة أخرى، ولكنه هذه المرة من جانب الفرنسيين الذين كانوا يستشعرون استعلاء على المصريين، مما أفقدهم القدرة على الحوار مع أبناء البلد. وبالإضافة إلى هذا الحاجز النفسى كان كذلك حاجز اللغة. غير أن كاتبة المقال لم تشر إلى أية لغة مما يترك انطباعاً لدى القارئ أنها اللغة الفرنسية، وهذا يشكل فجوة فى دراستها؛ إذ إن الجيش الفرنسى المشكل لمجمل العمل العسكرى الفرنسى كان يسمى "بجيش الشرق"، وهو جيش مكون من بولنديين وإيطاليين وجنسيات أوربية أخرى، فاللغة ليست اللغة الفرنسية، بل مجموع اللغات التى كان يتشكل من الناطقين بها هذا الجيش. وتخلص إلى أن الحملة كانت فى مصر لمدة قصيرة، بأنها بداية تحديث مصر، يعد قولاً مردوداً عليه بأن التحديث عملية تحتاج إلى وقت طويل تسمح بتقدم المجتمع.

وتأتى المقابلة مع بيتر جران التى أجراها كل من رمضان الخولى وعبد الرازق عيسى، لتعطينا وجهة نظر أمريكية فى هذا الحدث، والعنوان الذى اختير لهذه المقابلة: "إجهاض نهضة" وعنوان جانبى: "مصر فى نهاية القرن الثامن عشر". إذ يؤكد الباحثان اللذين أجريا هذه المقابلة مع "بيتر جران" على موقف المؤرخين المصريين عن الحالة الفكرية لمصر مرتبط بمؤلف: "الجذور الإسلامية للرأسمالية" الذى وجه إليه هؤلاء المؤرخون نقداً لاذعاً، يتمثل فى أن "جران" حاول أن يعطى رؤية أمريكية للحملة، بسبب أخذه نتفا من هنا وهناك، وقام بتعميمها، ولم يخالف المؤرخين سوى نللى حنا التى أشادت بمنهج جران ومعرفته العميقة بهذه الفترة، وبالنتائج التى توصل إليها.

وأكدت ردود جران على الأسئلة المطروحة وجود هذه النهضة، بشكل نابع من الداخل مؤكداً أن العلماء كانوا يفرقون بين "العقل والنقل"، ثم قام بتشبيه هذه النهضة المصرية التى سبقت وصول الحملة، بالنهضة اللاتينية فى إيطاليا، وكان هذا هو التأثير النظرى لفكرته عن وجود نهضة مصرية فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، أما فيما يتعلق بالوقائع فأشار إلى وجود "مجالس" كان يتم الحوار فيها عن

العلم والفن، وذكر من العلماء "مرتضى الزبيدى" صاحب "تاج العروس"، ويشير أنه فى سنة 1780 قامت حركة احتجاجية شعبية بسبب تأثير الثورة الصناعية، وقد أحدثت هذه الحركة خلخلة فى العلاقة بين الحكام والمحكومين وبدأت تتعدى الشكاوى ضد المماليك، ويشير إلى أن مصر تتشابه فى هذا مع إيطاليا أو إسبانيا.

وقد دافع هذا المؤرخ الأمريكى عن وجهة نظره القائلة بوجود نهضة فى هذه المقابلة بإعادة التذكير "بتاج العروس" الذى يتحدث عن القبائل العربية ولهجاتها ولغاتها مما يعتبر اهتماماً من "الزبيدى" بعلم الجغرافيا، وكذلك "حسن العطار" الذى حاول البحث فى التوازن بين العلم والشريعة، وجران هنا يقف شبه متفرد فى هذا الأمر الذى لا يميل أغلبية المؤرخين إلى التأكيد على جدية نتائجه، اللهم إلا قلة ذات توجه إسلامى. وربط كذلك بين مفهوم الرأسمالية ومؤسسة الأهرام، وكيف كان العلماء يهتمون برأس المال.

ولعل أهم ما فى هذه المقابلة، هو ما يوضحه هذا المؤرخ من أن التفاوت فى التنمية بين الصعيد والوجه البحرى؛ قد حدث منذ بداية عصر محمد على، تفاوت فى صالح الوجه البحرى، حيث أنشئت مصانع النسيج ومشروعات الرى. وقد أصبح هذا التفاوت واضحاً فى عهد إسماعيل.

وعندما وُجِّه بسؤال عما إذا كان قد أعطى "رؤية أمريكية" للحملة، كان رده منطقيا، أن الأمريكيين ليس لهم رؤية فى هذا الموضوع، فهم يستلهمون معلوماتهم عن الشرق الأوسط من المحفوظات الإنجليزية والفرنسية. ورغم هذا الرد الذى تختتم به المقابلة، وإمكانية تصديقه فى ذلك، إلا أن ما يتحدث عنه من وجود نهضة فكرية وعلمية فى مصر فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ما زال يشكل قضية خلافية حتى اليوم.

وعن تاريخ إمارة جرجا من خلال مراسلات مراد بك مع كليبر، نجد دراسة تاريخية يقدمها محرر هذا الكتاب (د. ناصر أحمد إبراهيم) حول العلاقة بين الأمير

المملوكى والقائد الفرنسى كليبر، ويلتقط هذا المؤرخ لحظة تاريخية تتمثل فى توقيع اتفاقية بين هذين الرجلين فى 5 أبريل 1800. ويركز المقال على تحليل محتوى المراسلات بين الجانبين المملوكى والفرنسى، ويمثل هذا العمل بنية كتاب يتم تأليفه ولعله سوف يرى النور قريباً. وقد اعتمد الباحث على أرشيف المراسلات الموجود فى المكتبة المركزية بجامعة القاهرة، وقد بلغ عدد الخطابات المتبادلة بين مراد والفرنسيين 74 خطاباً، وبالإضافة للحديث عن شكل هذه الخطابات، فإن المقال يوضح أن هذه الرسائل كانت على شكل عرائض، تنظم ما كان بينهما من مصالح مشتركة خلال الفترة التى استقرت فيها علاقاتهما.

وتكشف هذه المراسلات – حسبما يرى ناصر أحمد إبراهيم – عن جانبين فى كيفية إدارة مراد بك لإمارة جرجا الأول يخص الكشوفات والمقاطعات، والثانى يتعلق بالإجراءات التى اتخذت لإحكام السيطرة على هذه الإمارة. وثمة بعض من هذه المراسلات المصورة قد أُدرِجَت فى المقال. وينتهى المقال إلى أنه من الضرورى إعادة النظر فى تقييم دور شخصية مهمة مثل الأمير مراد بك، من خلال البحث عن الوثائق المتعلقة بهذا الزعيم المملوكى وإخضاعها للدراسة بعيدا عما شاع فى الأدبيات المعاصرة، وخاصة الجبرتى الذى لأسباب خاصة أعطى صورة قاتمة فى ترجمة لمراد بك.

أما رمضان الخولى فنراه يخصص بحثه عن "بعض الجوانب الاجتماعية من خلال قانون الأسرة فى زمن الحملة الفرنسية"، وصدّره بالخط العريض "على الحلوة والمرة". ويعرض المقال لتاريخية الأحوال الشخصية فى هذه الفترة، مستنداً إلى وثائق فى محفوظات المحكمة الشرعية وكذلك اعتماداً على أرشيف الديوان الذى أنشأه مينو – القائد الثالث للحملة – وخاصة المداولات الشفهية التى دارت فى الديوان، ويرجع كاتب المقال أيضاً إلى سجلات الكنائس مما يوضح شيئاً مهماً وهو زواج بعض الفرنسيين بمصريات مسيحيات كما هو الحال فى "سجلات الفرنسيسكان" فى القاهرة، وأظهرت هذه السجلات الموجودة فى مكتبة دير الآباء الفرنسيسكان أن

نسبة الزواج المختلط زادت 20 مرة على ما كان قبل الحملة وما بعد رحيلها، أما الزواج بين فرنسيين ومصريات مسلمات، فلم يعثر إلا على حالة واحدة مشهورة وهى زواج عبدالله جاك مينو من زبيدة بنت السيد محمد البواب.

ويقدم البحث صورة من عقد الزواج بين الفتاة الرشيدية والقائد الثالث للحملة، كما يرصد أن للوجود الفرنسى فى مصر أثرا سلبيا على الأحوال الشخصية؛ إذ نجد انخفاضاً واضحاً فى الزواج، وقد يكون هذا راجعاً إلى عدم تسجيل حالات الزواج أمام المحاكم الشرعية، كما زاد عدد طلبات الخلع من قبل النساء؛ بسبب غياب الأزواج.

وتنتقل بنا الموضوعات إلى ثلاثة وجوه نسمع عنها عند حديثنا عن الحملة الفرنسية، وقد خصصت دراسة لكل منها: الشخصية الأولى هى "الشيخ المهدى" والثانية هى "شريف مكة" والثالثة "للمعلم يعقوب". ويحدثنا مصطفى الأحنف عن الشيخ المهدى (1737-1815) كأحد العلماء والوسطاء ورجال الأعمال، فى مقال يقدم سيرة لهذا الشيخ التاجر – إذا صح تعبيرى- وقد اعتمد كاتب المقال على مصدرين الأول للمستشرق جان جيروم مارسيل الذى كان مرافقا للحملة، والجبرتى يمثل المصدر الثانى.

وكما هى الحال فى كتابة السيرة يبدأ مصطفى الأحنف بمولد الشيخ محمد المهدى، موضحاً بأنه ولد مسيحياً وكان اسمه "هبة الله" فى سنة 1737، ثم اعتنق الإسلام لكى يدرس فى الأزهر، وأخذ اسم "محمد وكُنِّى بالمهدى" إذ وُلدَ هذا الرجل فى أسرة مسيحية فى قرية ناهيا بالجيزة. ورغم أن الأمر يتعلق بسيرة حياة أحد مشايخ الأزهر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر إلا أننا نجد استدعاء لتاريخ على بك الكبير وخيانة محمد بك أبو الدهب له، وصحيح أن حياة الشيخ المهدى مرتبطة بظروف عصرى، إلا أننا نجد أنفسنا فى إطناب كان يمكن لكاتب هذا المقال أن يتفاداه، بيد أن هذا لا يمنع أن القارئ يجد نفسه أمام ثراء المعلومات التاريخية حول هذا الأزهرى الذى أثرى كثيراً بسبب

الطاعون الذى أصاب البلاد فى سنة 1791؛ حيث مكنه هذا من وضع يده على كثير من الأطيان، ومن إدارة الوقف الذى كان أحد أسباب الثراء. ولعل هذا الثراء، هو الذى دفعه لمداهنة الفرنسيين، وبعد رحيلهم استطاع أن يكسب إلى جانبه السلطة الجديدة.

إن هذه الانسجامية بين الشيخ المهدى وكل السلطات، تستحق عملاً منفرداً آخر، لما يحمل ذلك من رمزية، أعنى تحديداً رمزية علاقة المؤسسة الدينية بكل سلطة قائمة، وخاصة إذا كان القائمون على أمرها فى رغد من عيش كما هو الحال بالنسبة لمحمد المهدى، عملاً يوضح جانباً من علاقة الدين بالحكومات القائمة، وإن كان هذا ليس بعمل المؤرخ، بل هو عمل مؤرخ الفكر، لأن حالة هذا الأزهرى ليس بالفردية فى تاريخ العلاقة بين المؤسسة الروحية والسلطة الزمنية عبر تاريخ الإنسانية.

ويرسم لنا حسام محمد عبد المعطى صورة الشخصية الثانية وهى "للشريف غالب"، شريف الحجاز، موضحاً التداعيات التى سببها احتلال مصر من قبل الفرنسيين على دخل الحجازيين بسبب تأثر قوافل الحجيج القادمة عبر مصر ومنها، وكذلك حاجة "الشريف غالب" لتدعيم القلاع على البحر الأحمر هى التى أجبرته على توقيع اتفاقية مع آل سعود فى 2 أكتوبر 1798، وتظهر الدراسة أن ثمة اتصالات حدثت بين بونابرت وشريف مكة، نظراً لاعتقاد القائد الفرنسى الراسخ بأن الدين يمثل العقبة الرئيسة فى طريق سيطرته على مصر، وهذا ليس بالأمر الجديد فقد تطرق إليه الكثير من الباحثين وخاصة كتاب: "بونابرت والإسلام" الذى لا نجده فى قائمة مراجع المقال.

ونعلم أن "الشريف غالب"، كان هو الزعيم الإسلامى الوحيد الذى أجاب، بل تجاوب مع مراسلات بونابرت، بل حرص الأمير الحجازى أن يكسب مودة قائد الحملة. ولعل السبب فى ذلك هو اعتماد الحجاز اقتصادياً على مصر، وينقلنا المقال إلى دور الحجاز فى المقاومة ضد الفرنسيين فى مصر، فنجد أن أمير الحرمين لم

ونختتم قراءتنا النقدية بالمقال الثانى المكتوب بالفرنسية، بعد مقال ليلى عنان، إذ إن هذا الملف مكتوب بالعربية ثم ترجم، وهذا مما يحسب لهذه الدورية،وحسب للسيدج أنه ترك المصريين يعبرون عن انطباعاتهم ورؤيتهم عن الحملة. وثمة مقال كتبه أحد المؤرخين التوانسة وهو "جمال بن طاهر" الذى يعرض لنا علاقة ولاية تونس وموقف واليها من الحملة الفرنسية، ونرى جانباً شبه غائب فى المعالجة التاريخية المصرية للحملة، ألا وهو موقف هذه الولاية التابعة للدولة العثمانية من استيلاء الفرنسيين على جزيرة مالطا، وهم فى طريقهم إلى مصر. ويوضح لنا المقال كيف استطاع الفرنسيون كسب ودّ الولاة العثمانيين فى الإمارات الثلاث التابعة لهم فى المغرب العربى، مما أدى إلى عدم الاستجابة لدعوة السلطان العثمانى لهم بالتحرك ضد استيلاء الفرنسيين على مصر. والمقال يسد فجوة مهمة فى موقف المغرب العربى تجاه الحملة الفرنسية على مصر.

وأخيراً يذكر لكتاب السديج هذا الذى أخرجه على شكل دورية أنه ترك المصريين يتكلمون عن الحملة سواء باللغة الفرنسية أو باللغة العربية مع ترجمة دقيقة وممتازة، والتى تم نشرها تحت عنوان:

L'Expédition de Bonaparte vue d'Égypte, en: Egypte et Monde Arabe, No 1, CEDEJ Edition complexe, Le Caire- Paris 1998.

* * *

يؤد أى دور فى هذا، بل كان المغربى أو المراكشى فى الحجاز، أما شريف مكة فلم يفعل شيئا سوى محاولة التقرب من المحتل لمصر.

ويعيدنا هذا التساؤل الذى أوردناه للتو عند مناقشة المقال المخصص للشيخ المهدى حول علاقة المؤسسة الدينية بالسلطة القائمة، وهذا يحتاج إلى دراسة مستقلة قد يتولاها أحد مؤرخى الفكر لاحقاً لاستكمال الرؤية التاريخية لهذه الحملة من زاوية فكرية، من أجل السؤال: هل المؤسسة الروحية هى دائما فى صف الأقوى أو بالأحرى فى خط السلطة؟

ونأتى إلى الشخصية الثالثة التى أثارت جدلاً لم ينته بعد إذ بينما يراها البعض خائنة لوطنها، يراها آخرون أنها تمثل نموذجاً للوطنية التى أرادت تحرير مصر من السيطرة الأجنبية العثمانية عليها: إنها شخصية "المعلم يعقوب" وتقدم الدراسة مؤرخ مخضرم يمثل المدرسة التاريخية المصرية فى النصف الأول من القرن العشرين، وهو "شفيق غربال" فى ترجمة فرنسية ممتازة لإيمان فرج.

ومن خلال عمل هذا المؤرخ المحترف، نرى وصفاً تاريخيا لشخصية المعلم يعقوب (1745-1801)، أشبه بالوصف المحايد، ومعالجته تخلو من أية أفكار أيديولوجية، وهو ما يكسب هذه الدراسة أهميتها؛ لأنها تعالج بعمق الجو التاريخى السائد بين الفرنسيين والمصريين، خاصة الأقباط منهم من خلال دراسة للفرقة القبطية التى أسسها المعلم يعقوب ووظفها كليبر لصالحه بعدما رفض بونابرت إقحام الأقباط فى الصراع حتى لا يفهم على أنه صراع دينى بين مسلمين ونصارى.

كما نرى هذه الاحترافية التاريخية فى القراءة التاريخية التى يقدمها "شفيق غربال" لما أسماه مشروع استقلال مصر، وعلاقة الجنرال يعقوب بالفارس لاسكاريس الذى ينتهى به المطاف لأن يصبح هذا المالطى مدرساً للغة الفرنسية لإسماعيل حفيد محمد على. ولذا فالدراسة – وإن كان عنوانها المعلم يعقوب – إلا أنها سارت فى خطين متوازيين يعالجان سيرة حياة رجلين من رجال البحر المتوسط، يجمع بينهما الطموح، ويرون فى الحملة طريق الصعود إلا أن فشل الحملة أجهض طموحهما.